

مصر الإسلامية

للدكتور محمد مندور

ليس من شك في أن الحضارة المصرية القديمة قد خلفت رواسب بعقليتنا الراهنة ، ولكننا نتركها الآن ما دام مظهرنا العام اليوم أننا أمة عربية ، ونقف عند مصر الإسلامية ، ونعني بها تاريخياً مصر منذ الفتح العربي إلى الحملة الفرنسية ، ولهذا الفترة أهميتها في كل محاولة جادة لإدراك مقومات حياتنا الثقافية ، وذلك لأن دراستها ستنتهي بنا إلى حقيقة كبيرة ، هي أن مصر المعاصرة ليست استمراراً لمصر الإسلامية . وبين ذلك هو أن الحضارة العربية والثقافة العربية لم يطرد تقدمهما بلادنا ولا اطرد جانب الخلق فيهما ، بل غلبت عليهما المحاكاة والصنعة بدلاً من الإبداع والأصالة ، حتى أنه عند بدء الحملة الفرنسية نستطيع أن نقول إن مصر الإسلامية كانت تختصر في معظم نواحي نشاطها الروحي بل والمادي . ولم يكن بد عندئذ إذا أريد لبلادنا أن تنهض من أن تقوم نهضتها على أساسين جديدين : هما

الأخرى ، وأولها من الحفاوة والعناية أكثر مما أولت لغاتها أحياناً ، فصارت لغة العلوم والآداب للعرب وغير العرب حقاً طويلة ما بين أقصى المغرب وأقصى المشرق . ولا تزال على تبدل الأحوال وتوالى الفير لغة أدب وعلم في الأمم الإسلامية غير العربية . ولا تزال هذه اللغات مترعة بألفاظها ولا تزال تستمد العربية

وقد حوت على مصر المصور أدباً لا يحويه لغة أخرى . أدب موطنه ما بين الصين إلى بحر الظلمات ، وزمانه أربعة عشر قرناً ، ولا نعرف في آداب العالم قديمها وحديثها أدباً اتسمت به المواطن هذا الاتساع ، وامتدت به الأعصار هذا الامتداد فالعربية بأهلها وموطنها خصائصها وآدابها وتاريخها ، والعربية بقرآنها ، خالدة باقية على الخطوب والمصور لغة دين وعلم وأدب وحضارة وإنسانية . فهل تنصرها هم أبنائها وتستجيب لها عزائمهم ؟
فهد الزهاجج هـ

بعت التراث العربي القديم الذي خلفه صدر الإسلام ببلاد الشرق العربي من جهة ، والأخذ عن الحضارة الأوروبية مباشرة أو عن طريق الترجمة من جهة أخرى

وظاهرة الضمحلل الثقافة العربية بمصر في تلك الفترة من الظواهر التاريخية الكبيرة التي تستحق الدرس . ونحن لا نريد اليوم أن نقف عند قلب الحكم ببلادنا بين العباسيين والطولونيين ، والأخشيديين والفاطميين ، والأيوبيين والمماليك ، والأتراك العثمانيين ، وما كان في عهد كل منهم من ضعف بلادنا السياسي أو قوتها ، وتأثير ذلك في حياتها الروحية ، وإنما نريد أن نفسر الظاهرة على أساس ثقافي بحت

والذي يبدو لنا هو أن هذا التفسير لا يمكن أن يستقيم إلا إذا حددنا العلاقة بين الثقافة العربية في مصر والثقافة العربية في جزيرة العرب والمراق والشام حيث نبتت تلك الثقافة

ونمة حقيقة عامة في تاريخ الثقافة العربية لها نظائرها في تاريخ الثقافات الأخرى القديمة ، وهي أن تلك الثقافة قلما ازدهرت إلا حيث توجد السلطة السياسية وبوجود الأمراء الذين يرعون تلك الثقافة

ومصر في عهدها الأول بالحكم العربي لم تكن منفصلة عن الخلافة لا في عهد عمر وعثمان وعلي ، ولا في عهد الأمويين أو العباسيين ، بل كانت تابعة تبعية محكمة ؛ ولهذا لم تقم بها سلطة سياسية مستقلة تستطيع أن ترمي الحياة الأدبية والفكرية ببلادنا وتحوط نفسها برجال الأدب والفكر كما كانت تفعل الخلافة . ومن هنا لم تنشأ ببلادنا بيئة ثقافية قوية كما نشأت ببلاد الشرق . وهناك مثل بسيط ولكنه دال على هذه الحقيقة هو مثل الليث ابن سعد ، فقد نبغ هذا العالم الكبير في علوم الدين حتى شهد له الإمام الشافعي بالتفوق على الإمام مالك نفسه ، ومع هذا لم يستطع عالمنا المصري أن يكون مذهباً . ولقد علل الشافعي ذلك بقوله : « إن أصحاب الليث لم يقوموا به » وفي الحق أن التفسير الصحيح هو نشأة الليث بمصر وتبعية مصر عندئذ لبلاد الشرق العربي وعلماء الشرق العربي ، وعدم استقلالها سياسياً وروحياً

وفي القرن الثالث الهجري انفصل الطولونيون بمصر ، وأخذت بلادنا تستقل بحياتها الروحية ، كما استقلت بحياتها السياسية وكان من المنتظر أن تنشأ عندنا حضارة إسلامية لها طابعها الخاص

بصدق الإحساس، وذلك لأمرين هو أن الشاعر أو الناثر الصانع التكلف يفكر ويحس مرتين : مرة ليدرك الإحساس أو الفكرة ، ومرة ليحتال عليهما حتى يسكنا إلى اللفظ وفي هذا إفساد لها

وهكذا ظهرت المحاكاة كما ظهرت الصنعة في الأدب العربي ، وصادف ذلك بدء نشوء أدب مصرى مستقل ، فقلبت المحاكاة وغلبت الصنعة على أدبنا نحن أيضاً كما قلنا ؛ واستمرت الأمور تسوء رغم فترات الانقماش التي اهتزت فيها بلادنا بأحداث ضخام بددت المحاكاة أو مزقت الصنعة لوقت ما كالدموع العلوية أيام الفاطميين والحروب الصليبية أيام الأيوبيين

وجاء حكم الأتراك العثمانيين بما صحبه من ظلمات ومظالم جففت منابع الحياة الروحية ببلادنا ، حتى إننا عند بدء الحملة الفرنسية نبحت عن أدب مصرى عربى فلا نجد إلا شعراً متكلفاً سخيفاً أو نثراً مسجوعاً يدعو إلى الضحك ، أو كتابة مهملولة كتاريخ الجبرتي الذي تكاد لفته تمس اللغة العامية

وانتهت الحملة الفرنسية وجلس محمد علي على عرش مصر فأدرك بفطرته السليمة أنه لا بد لإنهاض هذه البلاد من أن يقطع التيار ؛ فيعود إلى التراث العربى القديم يمشه ، كما يتجه ببعثاته إلى أوروبا حيث كانت الحضارة الحقة كما سنرى

محمد مندور

أو على الأقل لها قوتها على الأصالة والخلق . ومع ذلك نستطيع أن نقول بوجه عام إن هذه الظاهرة أيضاً لم تتحقق

والسبب في ذلك هو أن وقت انفصال مصر جاء مع الوقت الذى أخذ فيه الأدب العربى يتقلب انقلاباً خطيراً نحو المحاكاة والصنعة بدلاً من الابتكار والطبع ، وجارت مصر هذا التيار العام الذى انتهى بتجفيف ينابيع الخلق الأدبى الأصيل في بلاد الشرق العربى وفي بلادنا على السواء

واقطع الأدب العربى نحو المحاكاة والصنعة ابتداء من القرن الثالث الهجرى من الظواهر التي أقترت الأدب العربى ، وكان لها في تاريخ الأمم العربية كلها أسوأ الآثار

فالذى نلاحظه هو أنه منذ ذلك التاريخ أخذ علماء اللغة والنقاد ينظرون إلى الأدب الجاهلى والأموى وأدب الصدر الأول من العباسيين نظرة تقديس دفعهم إليها دخول الأعاجم بين العرب وتطرق اللحن إلى اللغة وشعورهم بالحاجة إلى المحافظة على صحة تلك اللغة حتى لا يدب الفساد في لغة القرآن والحديث أو تنحرف مدلولاتها عن وضعها الأول . وظفت نظرة العلماء والنقاد على الأدباء والشعراء فاضطروا أن يحاكوا القدماء لافى اللغة فحسب ، بل وفي موضوعات القول وبناء القصائد ، وهكذا استقرت ظاهرة المحاكاة حتى أصبح هؤلاء الشعراء وأولئك الأدباء عبيداً للقديم وكأنهم يرقصون في السلاسل

وإلى جانب هذا التيار العام — تيار محاكاة القديم المسمى في تاريخ الأدب العربى بتيار عمود الشعر — أخذ يظهر تيار آخر معظم رجاله من الشعراء الأعاجم حاولوا أن يجددوا ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يتحرروا تحرراً تاماً ؛ فحافظوا على بناء القصائد كما حافظوا على موضوعات القول ولم يجددوا إلا في الصياغة وكونوا مذهباً هو المعروف بمذهب البديع أى المذهب الجديد . ورأس مذهبهم هو مسلم بن الوليد وبشار وأبو نواس وأخيراً أبو تمام فهو الذى وصل بمذهبهم إلى غايته

مذهب البديع هو مذهب الصنعة . ومن هنا لم يلبث هذا اللفظ أن تطور فأصبح يدل على علم بذاته هو علم المحسنات اللفظية كما فصل موضوعاته أبو دلال المسكوى في كتابه المعروف « بالصناعتين » صناعة الشعر وصناعة النثر

والصنعة في الشعر والنثر من أخطر الآفات التي تهدد الفكر والإحساس عند التعبير عنهما ، حتى لا نألفها نسمي الرأي وتذهب

إدارة البلديات العامة

تقبل العطاءات بمجلس جرجا
المحلى حتى ظهر يوم الاثنين
١٩ يونية سنة ١٩٤٤ عن
توريد ٣٠٠ أردنياً من الشعير
ويجب أن ترفق العطاءات بتأمين
ابتدائي قدره ٢٠٪ من
قيمتها وتطلب للشروط من المجلس
على ورقة دمغة فئة ٣٠ ملياً

٢٢٤٩